الياس كانيتي راحلاً في أصوات مراكش

بقلم

كامل يوسف حسين

« إنها كتابة تمنح موضوعها سيولة تتيح لأجزائه أن تنتقل وتتقاطع وتتوالد وتتآلف، إنها كتابة يلعب الهواء الحرّ بين سطورها تقرأ على إيقاع التنفس الصباحي ».

بهذه الكلمات اختتم ما يمكن أن نصفه بأوفى محاولة للرحيل في النسيج العقلي لإلياس كانيتي بقلم عربي ، مع ذلك فإن الإنبهار والاحساس بالمفاجأة اللذين يضمنانها لم يقتصرا على صاحب هذه الكلمات وحدها ،وإنما كمنا في الحقيقة في صلب الجانب الأعظم من محاولات تلمس أبعادعالم كانيتي .[1].

تضم أعمال كانيتي رواية طويلة ، وثلاث مجموعات من المقالات ، ودراسة هائلة للظاهرة الجماهرية استغرق إعدادها ربع قرن من الزمان ، وعدة مسرحيات ، وسيرة حياة ذاتية. مع ذلك فحينما أعلنت لجنة جائزة نوبل فوز إلياس كانيتي بأعظم جائزة للآداب في العالم تساءل النقاد والكتاب المتخصصون على امتداد العالم في غير قليل من الحيرة : من الرجل ؟ ما هي أعماله ؟

حين صدرت رواية كانيتي الموسومة «أوتو- دارفي »لأول مرة عام ١٩٣٥ مفجرة في إطار من الكوميديا السوداء هجوماً بالغ العنف على الفاشية ، وموجهة نقداً شديد المرارة للقوى التي ساهمت في انهيار النزعة الانسانية الليبرالية ، صدر قرار فوري بحظر تداولها في ألمانيا ، وقدر لها أن تنتشر كاللهب في سبع عشرة دولة ، لكن ناشر الترجمة الانجليزية في لندن ، حيث يقيم مؤلفها ، أسقطها من قائمته في عام ١٩٧٨ خلال المراجعة الدورية المعتادة ، ولم يقدر لأعماله التالية أن تجتذب اهتمام الكثيرين من النقاد أو الكتاب دع جانباً القراء، الأمر الذي ترك الكاتب البلغاري المولد وسط ظلال جابه محاولة الرحيل عبرها عقب فوزه بجائزة نوبل بقوله : « من يرد الإلمام بشيء عني فعليه بقراءة كتبي ».

غير أن مذكرات كانيتي الموسومة «اللسان طليقاً » لا تفض أسرارها بسهولة للقارىء، وإنما تدعوه لرحلة طويلة عبر شعاب وعرة .

ولد كانيتي في عام ١٩٠٥ في بلغاريا ، ثم انتقلت اسرته عقب ذلك الى انجلترا . تلقى تعليمه في هذه الأخيرة ، وكذلك في النمسا وسويسرا وألمانيا ، وحصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء من جامعة فينا عام ١٩٢٩ ، غير أنهه قرر أن يشق مجرى حياته في عالم الكتابة ، ورغم تملكه لناصية ثماني لغات إلا أنه آثر دائماً الكتابة بالألمانية التي كانت لغة الحديث في أسرته ، وحتى عقب نفيه من فينا في ١٩٣٨ إثر قيام النازي بضم النمسا ، واصل الكتابة بالألمانية ، ورغم حصوله على الجنسية البريطانية وإقامته في لندن منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية فلا يزال يكتب بالألمانية حتى اليوم .

يسود أعمال كانيتي شعور عنيد بالخصوصية الفردية المتدفقة بالأفكار ، وتدل كتبه على نطاق هائل من الاهتمامات ، لكنها تفصح كذلك عن انضباط عقلي صارم قل نظيره في عالم فكري يميل الى طرق أقصر الدروب، والى الانقياد من الاستسهال الى التسيب ، بحجة مواكبة ايقاع الحياة عند المنعطف الرابع للقرن العشرين .

رغم محاولات التعرف العربية التي بذلت عقب فوز كانيتي بجائزة نوبل ، فإن الرجل لا يزال في أذهاننا شبحاً ضبابياً ، ويظل دونما إجابة مقنعة سؤال محدد : ما هو جوهر العالم الخلفي الذي انبثق منه فكر كانيتي وبأي معنى يمكن لنا كعرب أن نلج مداخل هذا العالم ؟

- ٢ -

« إن وعي الأمة لنفسها يتغير عندما ، وفقط عندما ، يتغير رمزها ».

تلك كلمات كانيتي في أهم أعماله « الجمع والسلطان »، الذي استغرق إعداده قرابة ربع القرن ، والصادر في عام ١٩٦٠ والذي يتصدى للظاهرة الجماهيرية ، التي ظلت مبحثاً شديد المراوغة يتحدى محاولات الامساك به من جانب علماء الاجتماع ودارسي النظرية السياسية لا نقول منذ خصص أرسطو مبحثاً لأسباب الثورة في كتابه السياسة ، وإنما منذ حاول لوبون ضبط الظاهرة ومحاصرتها فراوغته حتى وصفها بأنها ظاهرة « نسائية »، إلى محاولات القائلين

(١) مقدمة المترجم لكتاب «أصوات مراكش»، لالياس كانيتي، الفائز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٢ .

بالمدرسة السلوكية لمحاصرتها في ضوء معطيات المعمل السياسي .

ا لكتاب يتغذى جنباته الواسعة بأصداء شتى لا يحصي القارىء

الكتاب يتغذى من العالم الذي عاصره ، لكنه أيضاً يستحضر تجارب القرون ، فتضج جنباته الواسعة بأصداء شتى لا يحصي القارىء الجهات التي تهب منها وتأتي ، يكاد الميدان يكاد يكون تاريخ البشر بكامله ، لكن الهم واضح وصريح ومحدد: محاصرة الظاهرة الجماهيرية، تشريح الجمع في اندفاعه، وحشيته، توقفه، سكونه، وانحلاله،

وعودة الى المقتطف الذي بدأ منه هذا الاستطراد ، يلاحظ كانيتي أن الرموز القومية هي على الدوام رموز للجموع ولسلطانها ، أو أنها رموز لخصائص الجموع في توليدها للسلطان .

يضرب كانيتي أكثر من مثال واحد للدلالة على ما يعنيه هنا ، فالبحر بالنسبة للانجليزي ليس حياة فحسب ، وانما هو تجاوز للحياة والموت معاً ، فكل انجليزي يرى نفسه قبطاناً بحرياً ، البحر مصدر قوته وميدان مغامرته، والبحر قبره الذي يضمه في النهاية ، البحر مصدر التحول تفاعلاً مع الدنيا ، وهو أيضاً مصدر الثبات صموداً في وجه الآخرين واتقاء لغيلة المهاجمين .

بالمقابل فإن السدَّ هو الرمز الجمعي لهولندا ، رغم كونها قوة بحرية بالأساس ، قارع أسطولها انجلترا على امتداد بحار العالم . لقد كان على الهولندي عبر البحر أن يكسب الأرض التي يقطنها ، فهي منخفضة الى الحد الذي اضطره للجوء الى السد لحمايتها من غائلة البحر وللخندق، وهو صورة اخرى من السد ، لدفع الغزاة عنها ، وهكذا الخنادق بداية حياة الهولنديين القومية ونهايتها ، وحينما يرفعون راياتها في أوقات الخطر فانهم بالمقام الأول يرفعونها ضد البحار الكامنة في صدورهم .

والرمز في المانيا مختلف تماماً، انه « الغابة الزاحفة » ففي المانيا تمثل الغابة الرحم العتيق الدافىء واهب الحياة ومانح القدرة على استمراريتها ، ومن صرامة الغابة الألمانية وانضباطها يستمد الجيش الألماني مقوماته .

لكن الرمز في فرنسا تتكاثف جزئياته الى حد التعقيد، انه الثورة ، وبالتحديد ١٤ يوليو ، حين انطلق جمع ظل طوال القرون ضحية للتصور الملكي للعدالة ليحقق العدالة بكفيه العاريين ، فيقتحم الباستيل ، منفجراً في المارسييز ، ومسجلاً تلك الحيوية التي لا تفتأ تتجدد مع كل استحضار للرمز القومي .

لو اننا سايرنا هذا الخط من التفكير ـ رغم ما قد يكون لنا عليه من تحفظات ـ فما هو الرمز القومي الذي يمكن أن نتصوره للعرب وكيف يتفاعل هذا الرمز مع حياتهم النفسية الجمعية؟

لأول وهلة لا يبدو التصدي لعلامة الاستفهام تلك أمراً يسيراً ، وهذه الصعوبة شديدة الأهمية في الدلالة على الوضعية الراهنة للرمز ، وعلى تمزق النسيج الذي يربط رمز الأمة بوعيها على نحو ينذر أن نرى له نظيراً . مع ذلك فان نظرة بدققة كفيلة بأن توضح أن الرمز القومي للعرب هو الصحراء . حقاً إن الكثيرين منا قد يعيشون أعمارهم وأعينهم لا تكاد تلمح الصحراء الا في اطلالة سريعة ، وينطبق هذا القول على أبناء الريف النهري الذين لا يعرفون دربا الى خارج قراهم وقاطني المدن الذين ينفقون أعمارهم في سراديبهم الأسمنتية المعلقة كالقبور . ومع ذلك فالصحراء كامنة في صدورهم جميعاً ، حاضرة ذلك الحضور المتوهج الذي لا يملكه إلا الرمز . وما من دليل على ذلك أقوى من خروج العرب للصحراء وقت الخطر للقتال ، وهي تجربة ـ على عكس ما يتصور الكثيرون ـ من حسن طالع أبناء هذه الأمة أن خاضعوها مؤخراً ، ففي الصحراء، وفي أقل من نصف عقد من الزمان ، تهاوت في صدور جيل بكامله من الشباب العربي كل البنى والهياكل والتراكيب التي فرضت على الحياة العربية منذ وضعت الحرب العالمة الثانية أوزارها . ورغم كثافة غبار الانكسار ، فان الأعمى وحده هو الذي يعجز عن ان يتبين في مكب الركام ملامح ما هو آت .

مع ذلك فان ثمة ملاحظة دقيقة لا بد من تسجيلها هنا: حقاً ان الصحراء هي بالنسبة للعربي المنطلق، وهي أيضا المآب ، وهي بين هذا وذاك المعقل الحقيقي ، الذي يلاذ به وقت الخطر تلمساً للقوة، ووقت البلاء نشداناً للحكمة (هل لنا أن نتذكر أنه حتى في القرى النهرية يرحل السكان باطفالهم مع ميلادهم الى الصحراء التماساً لبركات الأولياء المدفونين في الصحراء، هكذا يفتح الطفل العربي عين الدهشة في مطلع حياته على الصحراء في تجردها الصامت كالسيف ، ثم يغمضها عليه أيضاً إذ أن معظم المقابر حتى في مثل هذه القرى وفي المدن موجودة في الصحراء) نقول حقاً ان الصحراء هي المنطلق والمآب ، لكن الخطير أيضاً أن هذا الرمز شرع في الشحوب ، وشحب معه الوعي القومي وسقط العرب في الأرض الخراب بين رمز قديم يجري هجرانه بضراوة ورمز جديد لم يتبلور، وليس ثمة ما يدل على أنه موشك على التبلور قريبا .

ولكن الا تنقلنا هذه الملاحظة الى صلب العمل الوحيد لإلياس كانيتي الذي يدور تحت سماء عربية وهو كتابه في أدب الرحلات الموسوم «أصوات مراكش »؟

« لم يكن هناك الا الهباء، انها الحقيقة ذاتها ، باحة موت ضائعة ، حينما تنظر اليها لا تحس بأدنى اكتراث بهوية الراقدين تحت التراب وموضع ضجعتهم الأخيرة ، لا تتوقف! لا تتأمل الأمر ! ها هم جميعا يرقدون كومة من حجار ، فتود لو تهرع فوقهم ، منطلقاً كالضبع ، انها بريئة للموتى ما عاد شيء ينمو في فيها ، البرية الأخيرة ، آخر البريات جميعاً » .

تدفق هذا الفيض من الشعور بالهباء، بالعدم ، في الموضع الوحيد من هذا العمل الذي تناول فيها إلياس كانيتي الحديث عن الصحراء، وربما كان في ذلك يعكس مشاعر الكثيرين من العرب أنفسهم الذين شرعت عرى الارتباط بينهم وبين رمزهم القومي في التحلل . اليس من العجيب حقاً ان هذه الاشارة تتناول رؤية للصحراء من خلال . . . مقبرة ؟ لكن كانيتي يملك تلك العين

الأسطورية التي تذكرنا ، في حيوية وتوهج ، بعين تشيخوف القادرة على الإلمام في لمحة بالتفاصيل، كل التفاصيل الدقيقة والانسانية التي وصفها نابوكوف مرة بأنها « تفاصيل إلهية »، فها هو ذا يعود ليخرج برؤية كلية من خلال التفاصيل متنسماً عبق الحياة الأشمل في غور المقبرة فيقول : « في طريق العودة لم تبد لي أحجار القبور الركام ذاته ، فقد أصبحت أدري أين يتجمع سناها وحياتها ».

ليس « أصوات مراكش » عملاً قائماً كما قد يوحي المقتطف الأول ، وانما هو في الحقيقة أقرب الى معمار موسيقي شديد الرهافة والدقة ، يشف حد الشجن ، يصخب حدّ العنف ، يسافر راحلاً في الفرح ، يتماوج محاصراً المدينة التي يعرف في رحابها ، ثم ينساب مختزلاً نبض مراكش في دقة مذهلة .

يمكن القول بأوسع المعاني بأننا في « أصوات مراكش » بإزاء ثلاث حركات متمايزة ومتناغمة في نسيج شديد التداخل والتركيب ، ومحاولة فصل جزئياته هنا إنما تعتمد التبسيط بهدف استشراف روح العمل .

تضم الحركة الأولى المقاطع الخمسة الأولى من الكتاب ، بدءاً من « وجهاً لوجه مع الإبل »، وانتهاء بـ « الدار الصامتة والأسطح النماوية » تبدأ بضربات قوية حتى لكأنا بين يدي خامسة بيتهوفن ، هي ذي جعجعة الإبل ترتفع في عتمة الغروب مجلجلة بكل ما في المدينة المشرقية من جبروت قدري يخيل للغريب أنه جبروت المدينة ذاتها ، يثور عنفوانه في مواجهة محاولته اكتناه أسرارها ، لكن المدينة التي ودعت العنفوان الحقيقي في مكان ما على الطريق الطويل الممتد من القرون الوسطى لا تلبث أنفاسها أن تتقطع، فلا تملك الاستمرار طويلا في التظاهر بالجبروت ، هكذا تصل أصواتها الى حد الموات في الدور الصامتة .

الحركة الثانية التي تشمل المقاطع الثلاثة الوسيطة المشكلة لأطول أجزاء الكتاب بدءا من « المرأة المطلة من النافذة » مروراً بـ « زيارة الى باب الملاح » وانتهاء بـ « عائلة الدهان » تبدأ أيضاً بلقاء مع القدر . ولا اظن القارىء يجد كثيراً في الأدب العالمي شجن هذا اللقاء ورقته وشفافيته، التي يعزف الكاتب الغربي أنغامها ، فينفجر فينا كشرقيين حزن وإحباط وتعاسة آلاف السنين ، المرأة الجميلة المهينمة عند النافذة مقدمة العطاء الانساني الوحيد في مدينة بلا قلب حين تتكشف عن نوازع الجنون إنما تقدم لنا بحدة وكضربة سيف دم عشقنا المهدور . ضياع ثوراتنا التي ركب موجاتها الانتهازيون ، فننا الذي تحول الى تلاعبات بلهاء بالشكل تخفي موات المضمون ، ديننا وقد تحول من ثورة اجتماعية الى « دروشة » راحلة في الغياب ، وبكلمة تقدم لنا اغترابنا وقد فشلت كل أساليب الانعتاق في تحريرنا من إساره .

في الحركة الثالثة التي تبدأ بلقاء مع « الحكواتية والكتبة » لتنتهي أمام أحجية « المحجب » نحن في لقاء مع القدر أيضاً ، هاهم الحكواتية يعيدون بأقاويلهم الطنانة جعجعة الإبل في صدر الكتاب ، لكن محاولاتهم تجميل وجه المدينة المحتضر ببطولات الفرسان الراحلين لا تفلح في إخفاء الحقيقة ، هذه الحقيقة التي سرعان ما يقدمها لنا «المحجب» بصوته الأحادي المقطع، المتردد أبداً ، الذي تحار مع الكاتب في تفسيره : أهو ندب صامت للموات الشرقي الذي كان مدينة يوماً أم هو بشير بانبعاث الآتي ؟ إنه على أي الأحوال «الرفع» المذهل للجبروت الصاك عند أسوار المدينة وللموت المهموس في قرارها .

وحدها المدن التي تملك عبقرية الانبعاث من موات القرون ، لتمتد باتجاه تجاوز الأسوار لا الغرق في رحاب المقابر ، تستطيع أن تجعل « المحجب » رمزاً للغد الآتي واهب الحياة .

فتسمع ما حولك !

تسمع ما حولك!